2025 Vol.(16), No. (/),P) (77- 55 الاصدار (16) ,العدد (67) , الصفحة(

IRAQI Academic Scientific Journals

العراقية المجلات الأكاديمية العلمية

مجلة الدراسات التاريخية والحضارية

Journal of historical & cultural studies

ISSN: 2 23-1116 (Print) - E- ISSN: 2663-8819 (Online)

Journal Homepage: http://jhcs.tu.edu.iq

صحراء الملثمين والمغرب الإسلامي، دراسة في العلاقات السياسية من القرن الثاني الهجري/8م إلى مجيء المستعمر الفرنسي

The Sahara of the Mulathamun and the Islamic Maghreb: A Study of Political Relations from the 2nd Century AH (8th Century CE) to the Advent of French Colonialism

اسم الباحث/ة (1): د. محمدو نناه ولد همر [1]

nennahabdallahi88@gmail.com

الدرجة العلمية: شهادة الدكتوراه

التخصص العلمي: تاريخ المغرب والأندلس في العصر الوسيط

مكان العمل: قسم التاريخ – جامعة نواكشوط – موريتانيا

اسم الباحث/ة(2):

أ.د. عمار أحمد غرايسة

Gharaise-ammar@ Univ-eloued.dz

الدرجة العلمية: بروفيسور

التخصص العلمي: تاريخ المغرب في العصر الوسيط

مكان العمل: جامعة الوادي – الجزائر

تاريخ الاستلام: **Received** - القبول: **Accepted** - النشر المباشر /حزيران/ 2025 **Available Online:**

الملخص: لعبت صحراء الملثمين على امتداد العصر الوسيط دورا محوريا في الربط بين السودان الغربي والمغرب الإسلامي؛ حيث شكلت مجالا للتواصل السياسي والتفاعل الثقافي والحراك الاقتصادي المستمر، وهي علاقات فصلت المصادر في كثير من جوانبها، فعلى الرغم من الطابع الصحراوي للمنطقة وحياة الحل والترحال التي ميزت معظم صنهاجة الجنوب، فإن حواضر عديدة تبوأت مكانة اقتصادية مرموقة وتحولت إلى منصات فاعلة في المشهد السياسي ولعب الملثمون من خلالها أدواراً بارزة في صياغة التوازنات السياسية.

[1] - المؤلف المرسل البريد الإلكتروني: nennahabdallahi88@gmail.com

وترتكز هذه الدراسة على تحليل أبعاد العلاقة السياسية التي جمعت الملثمين بالمغرب الأقصى في محاولة لتفكيك الخطاب الذي سعت بعض القراءات المعاصرة إلى ترسيخه من خلال تأويل مضامين المصادر التاريخية تأويلا يفضي إلى تصوير المنطقة كامتداد جغرافي تابع سياسيا للمغرب الأقصى، وهي أطروحات تندرج – في تقديرنا– ضمن سياق خطاب توسعي نشأ في خضم الحركات الاستقلالية خلال القرن العشرين، غير أنها تفتقر إلى السند التاريخي والمشروعية القانونية.

الكلمات المفتاحية: صحراء الملثمين– يحي بن إبراهيم الكدالي– أودغست– يوسف بن تشفين– مراكش.

Abstract:

Throughout the medieval period, the Sahara of the Mulathamun (Veiled People) played a pivotal role in linking Western Sudan with the Islamic Maghreb, It served as a space for political interaction, cultural exchange, and sustained economic activity, Historical sources provide detailed accounts of many aspects of these relations. Despite the region's harsh desert environment and the nomadic lifestyle that characterized most of the southern Sanhaja tribes, several urban centers emerged as significant economic hubs. These cities became influential platforms in the political landscape, through which the Mulathamun played a prominent role in shaping political balances.

This study is based on an analysis of the political dimensions of the relationship between the Mulathamun and the Maghreb al-Aqsa, aiming to deconstruct the narrative promoted by certain contemporary interpretations, These interpretations read historical sources in a manner that portrays the region as a geographically contiguous yet politically subordinate extension of the Maghreb al-Aqsa, In our view, such theses belong to an expansionist discourse that emerged amid the independence movements of the twentieth century but lack historical evidence and legal legitimacy.

Keywords: Al-Mulathameen Desert - Yahya ibn Ibrahim le Kdali – Oudaghost -Yusuf ibn Tashfin -Marrakech.

المقدمة:

تطلق صحراء الملثمين على المجال الجغرافي الذي كان يعرف في مرحلة ما قبل الاستعمار الأوربي الحديث ببلاد شنقيط، وتمتد حدود هذه المنطقة من المحيط الأطلسي غربا إلى منطقة أزواد شرقا ومن نهر السنغال جنوبا إلى وادي درعة شمالا، وتعني حاليا الجمهورية الإسلامية الموريتانية والصحراء الغربية وشمال دولة مالي(أزواد)، فهذه المنطقة منذ القدم وُجدت بها قبائل تتقاطع في اللغة والعادات والتقاليد، ففي مرحلة ما قبل مجيء القبائل الحسانية كانت مجالا لقبائل صنهاجة الجنوب تجوب قفارها ووهادها بحثا عن أمثل مكان منها للاستقرار وتمتد شمالا نحو مناطق المغرب الإسلامي المجاورة التي تعتبر امتدادا لمكوناتها البشرية من قبائل البربر.

Corresponding author:

وابتداء من نهاية القرن السابع الهجري وصلت إليها القبائل الحسانية(فرع من بني هلال) ونشرت بها اللغة العربية وامتزجت مع السكان الأصلين(المجتمع الصنهاجي) وهو ما أعطاها هوية تختلف في معظم جوانبها عن مناطق الجوار العربي من الشمال والإفريقي من الجنوب؛ حيث أن سكان هذه المنطقة يشتركون في التحدث بلغة واحدة هي "اللهجة الحسانية" أو اللغة العربية المُضرية الملحونة وهي أقرب اللهجات إلى العربية، وقد اعتبر ددود بن عبد الله نقلا عن الباحث الإنكليزي موريس أن "الخصائص اللغوية والأدبية هي الفيصل الذي يميز هذه المنطقة عن غيرها"؛ فقد ذهب إلى أن الشعر الحساني هو الذي يُميز الشناقطة ويوحدهم، فهم حسب تعبيره يتذوقونه في مدينة تيندوف الجزائرية ومنطقة السوس التكني كما في إقليم أزواد[1]؛ حيث القبائل العربية الحسانية والطائفة الكنتية المشهورة بعلمائها وصلحائها.

ولا تزال جميع مدن وقرى هذه المنطقة تربطها وحدة الدين واللغة والعادات الاجتماعية رغم اختلاف الوافد الاستعماري الذي ميز بين أجزائها في الشمال والجنوب، وفتح المجال أما أطروحات توسعية تقول بتبعيتها للمغرب الأقصى، وهي أطروحات قد لا تستند على أساس تاريخي وتدحضها الخصائص الجغرافية والبشرية للمنطقة منذ عصر ما قبل المرابطين حتى مرحلة الاستعمار الفرنسي والإسباني الذين تقاسماها؛ أي المنطقة، ولا تزال هذه الأطروحات لدى عدد من السياسيين والدارسين.

فما هي الأسس التاريخية التي انبنت عليها هذه الأطروحات والمطالب؟ هل نجد لها صدى في المصادر التاريخية للعصر الوسيط، أم أنها تثبت عكسها؟ وهل نجد من خلالها إشارات تفيد بتعيين أمير أو سلطان عليها من قبل أمراء مراكش وفاس أو بيعة لأحدهم من قبل أمير من أمرائها في حقب ما بعد حكم الملثمين للمغرب الإسلامي والأندلس؟ وكيف استطاعت القبائل الهلالية الوافدة أن تؤسس بها مع القبائل الصنهاجية كيانات سياسية ومشيخات مستقلة سياسيا عن المغرب الإسلامي عموما والمغرب الأقصى على الخصوص؟

قام النظام السياسي في صحراء الملثمين على العصبة القبلية التي تستند فيها السلطة على القبيلة الأكثر نفوذا وقوة في المنطقة والتي يتم عبرها توريث الحكم لابن الأمير أو السلطان الأكبر والذي كان من مهامه توحيد القبائل حين تسوء أحوالها وتتشتت وقيادة العمليات الحربية، يساعده في ذلك عدد من رؤساء تكتل القبائل الصنهاجية المكونة للمجتمع، وقد طبعت هذه السمة أول نظام سياسي في الصحراء قبل المرابطين.

Corresponding author:

1- العلاقات السياسية بين صحراء الملثمين والمغرب الإسلامي قبل عصر المرابطين:

لقد كانت مملكة أودغست أول تنظيم سياسي في حاضرة عمرانية بصحراء الملثمين يتميز قادته بالقوة والتوسع في أراض السودان المجاورة من الشرق والجنوب، فقد ذكر اليعقوبي في القرن الثالث الهجري(ت 284هـ/927م) أن ملك صنهاجة في أودغست "لا دين له ولا شريعة يغزو بلاد السودان وممالك السودان كثيرة"[2].

ويستشف من عبارة لادين له ولا شريعة أن الإسلام في هذه المنطقة كان سطحيا في عصر ما قبل المرابطين على الرغم من توافد التجار المسلمين واستقرار جاليات كبيرة منهم في أودغست، ويستشف كذلك أن علاقات الملثمين السياسية كانت مع السودان لا مع إمارات الشمال، وأول ملك لهم حسب ابن أبي زرع هو يتلوتان بن تلاكاكين الصنهاجي اللمتوني الذي عرف نفوذ الملثمين في عهده توسعا كبيرا وظل يحكم حتى سنة 222هـ/837م[3] مخلفا الحكم لأمير أطلق عليه ابن خلدون يلتان[4] والذي أمضى خمسا وستين سنة حاكما قبل أن تبتسره المنون سنة 287هـ/900م، تاركا الحكم لابنه تميم(ت306هـ/918م) وهو آخر ملك لصنهاجة الصحراء قبل تشتتهم وتفرق كلمتهم؛ إذ ثاروا عليه وتفرقت كلمتهم مدة مائة وعشرون سنة قبل أن يوحدهم أبو عبد الله بن تيفاوت المعروف بناشرت اللمتوني حسب رواية ابن خلدون[5].

وحسب البكري فإن صنهاجة كان لهم ملك في عشر الخمسين والثلاثمائة يدعى تين يروتان بن يزار، وقد امتاز بالقوة وكان ملكه مسيرة شهرين في مثلهما، كما كانت تدين له عشرين ملكا من ملوك السودان كلهم يأدون له الجزية[6]، ويبدو أن علاقاته السياسة كانت مقتصرة عليهم، والدليل في ذلك ما ذكره؛ أي البكري، من أن ابن ملك ماسنا وهو من ملوك السودان لجأ إليه في حرب له مع "أوغام" فأمده "بخمسين ألف نجيب"[7]، وهو عدد ليس بالقليل في بيئة صحراوية أغلب مناطقها قِفار، ويتضح منه أن مُلك صنهاجة كان في عز مجده مرحلة ما قبل المرابطين؛ ففي هذه الفترة كانت صحراء الملثمين بأسرها موحدة تحت حكم يرويان بن يزار[8]، ويعني ذلك أنه كان يحكم حتى الساقية الحمراء ووادي الذهب ومدينة نول لمطة شمالا(الصحراء الغربية حاليا)، وأنه كان بإمكانه التوسع نحو منطقة المغرب الإسلامي ولا سيما المغرب الأقصى المصاقب للأجزاء الشمالية الغربية من مجال الملثمين، ومن الواضح أنه لم يكن هناك ما يغري بالتوسع والمخاطرة أو إقامة علاقات سياسية مع الكيانات السياسية المتعاقبة، خاصة وأن هذه الفترة كان فيها المغرب الأقصى كان يعاني تشرذما سياسيا كبيرا سيظل السمة الأبرز حتى الفتح المرابطي في القرن الخامس[9].

Corresponding author:

ومن المفارقات أن بعض الدارسين يذكر أن دولة صنهاجة كانت تابعة للفهريين إبان حكمهم وذلك منذ فترة عبد الرحمن بن حبيب حوالي عام 127هـ/747 حتى سقوطها سنة 140هـ/757م[10]، وأن استقلال الصحراء كليا كان في عهد تيولتان بن تلاكاكين الذي ذكرنا سابقا أنه أول ملك للملثمين بالصحراء[11]، ونعتقد أن التبعية التي ذكرها بعض المعاصرين كانت شكلية ونتجت عن وصول حملات الفتح الإسلامي إلى المنطقة وأطراف السودان الغربي، ومما يدل على ذلك عدم ورودها في المصادر التي تحدثت عن الصحراء، وعدم ذكر أي أمير بَعث بهدايا أو قدم إلى مقر إمارة الفهريين، مما يعني أنها تبعية شكلية لأمير من القبائل الصنهاجية الكثيرة، وقد لا ترقى إلا درجة التبعية وقف نظم ذلك العصر، ولا تختلف عنها الإشارة التي أوردها ابن الأحمر حول علاقة الملثمين بالأدارسة والتي مفادها أن وفدا منهم قدم إلى إدريس لما علموا بإقامته إمارة بالمغرب الأقصى وأسلموا إليه بلادهم[12].

فهذه الرواية لا نجدها في المصادر التي أرخت للملثمين ولم يذكرها ابن حوقل الذي زارهم ودون عن أوضاعهم، ومما يدل على ردها واستحالتها؛ الوضعية السياسية للصحراء حينئذ؛ فمن المعلوم أن دولة الأدارسة تأسست سنة 171هـ/788م وأن الصحراء في هذه الفترة كانت تحت حكم تيولتان بن تلاكاكين الذي حكم من سنة 157هـ/775م حتى سنة 222هـ/837م، أي بعد وفاة إدريس، ومن الثابت من خلال المصادر أنه كان من أقوى السلاطين وتجاوز نفوذه مجال الملثمين وتوسع على حساب بقاع شاسعة من ممالك السودان جنوبا وشرقا[13]. والمتتبع للمصادر التي تحدثت عن الدولة الإدريسية نجد أنه عاصر ثلاثة من أمرائها وهم إدريس الأول (ت 177هـ/793م)[14] وإدريس الثاني (ت 213هـ/ 828م)[15] وإدريس الثالث؛ محمد بن إدريس (ت 221هـ/836م)[16]، ولا تذكر أن أيا من هؤلاء بعث إليه أمير الملثمين بهدية أو بايعه، ولو كانت هناك تبعية سياسية أو بيعة لوفد على فاس لأجل إتمام مراسيمها ولتم تخليدها في المصادر مثلما خُلدت الأحداث التي وقعت في عصر الأدارسة الثلاثة، ولبعثوا إلى الملثمين من يعلهم تعاليم الإسلام[17]، إلا أنه لم تكن هناك بيعة، وما يذهب إليه بعض الدراسين من تقدير الملثمين لآل البيت[18] لا يمكن أن يصل حد تسليمهم البلاد ومبايعة ملك قوي يمتد سلطانه مسيرة شهرين في مثلهما لأمير إدريسي لا تدين له إلا بقاع محددة من المغرب الأقصى.

ولا تذكر المصادر أي علاقات سياسية للملثمين مع الأدارسة وغيرهم من الكيانات السياسية في المغرب الأقصى في مرحلة ما قبل الفتح المرابطي، ومن المعلوم أن المغرب الأقصى منذ أواخر عصر الأدارسة أصبح عرضة لهيمنة القوى السياسية الأجنبية، فتارة تابعا للفاطميين الشيعة، وتارة للأموين في الأندلس[19] ثم بني زيري في إفريقية بعد رحيل الفاطميين[20].

Corresponding author:

وحتى الكيانات السياسية الأخرى التي كانت تتقاسم أجزاء كبيرة من المغرب الإسلامي خلال عصر الأدارسة لا نجد مصادر تشير إلى علاقات سياسية لها مع الملثمين، ويتعلق الأمر بالإباضيين في تيهرت وبني مدرار في سجلماسة، فعلى الرغم من أن الصلات التجارية كانت دائبة بين صحراء الملثمين ومجالات هاتين الإمارتين[21]، إلا العلاقات السياسية لم نجد لها صدى في المصادرات والدراسات المعاصرة[22]، غير أن الإشارات التي وردت عن تواجد الإباضيين في أودغست توحي أن عناصر بشرية كبيرة من تاهرت كانت تقطن هذه المدينة، بيد أن سياسة التوسع لم تكن لدى أمراء تاهرت في ذلك الوقت لبعدهم عن مجال الملثمين وربما لضعفهم عن المخاطرة إلى أمراء دان لبعضهم كثير من ممالك السودان[23].

والأمر نفسه ينطبق على إمارة سجلماسة؛ فرغم أن المصادر تشير إلى أن بعض أمرائها لامس في تحركاته أطراف صحراء الملثمين، ولا سيما أبو المنتصر اليسع بن أبي القاسم(174- 208هـ/791-823م) الذي اتسم بالطغيان والتجبر، فإننا لا نجد أي ذكر لوصوله مجال الملثمين؛ فابن خلدون ذكر أنه دوخ بلاد الصحراء[24]، وهي عبارة يمكن القول أنها مائعة، فالصحراء شاسعة بمناطق المغرب الاسلامي دون صحراء الملثمين، ولا يعنيها البته في هذه المعلومة، والدليل في ذلك حاكمها القوي في ذلك العصر تيولتان بن تلاكاكين(157- 222هـ) الذي كان أكثر جندا؛ إذ "يستطيع تجهيز مائة ألف من الجمال الأصيلة" ويدفع له ممالك السودان الجزية[25] عن يد وهم صاغرون.

فكيف بمن هو على هذا القدر من القوة أن يقبل باقتطاع جزء من مجال نفوذه السياسي؟

لا يمكن ذلك في نظرنا، خاصة وأن هذه الفترة لم تكن لدى المسلمين سياسة توسعية نحو السوان الغربي حسب ما ذهب إليه (Devise [26])، مما يعني أن المنطقة ارتبطت مع المغرب الإسلامي بصلات تجارية لا أكثر من ذلك، وركز الملثمون – الذي يبدو أنهم كانوا الأقوى في جل المراحل – جهودهم على إخضاع جيرانهم من الجنوب والشرق الغني بالذهب ومراكز جلب الرقيق، وأهملوا الشمال لبعده عن العاصمة السياسية والاقتصادية أودغست، وعدم تعرض أي منهم للقوافل التجارية بسوء يشكل خطرا على الصادرات والواردات من الجهتين.

ويستشف من إشارة أوردها الحموي مفادها أن أهل أودغست كانوا كفارا أسلموا على يد عبيد الله المهدي[27]، أن الفاطميين نشروا التشيع في مجتمع الملثمين بمقر سلطانهم في الصحراء عبر القوافل التجارية، وأن الصحوة الدينية التي تحدث عنها البكري وغيره من المصادر[28]، كانت إسلاما شيعيا.

Corresponding author:

ولا تذكر المصادر أي حملة عسكرية للفاطميين على بلاد الملثمين مما يعني أن التشيع دخل بالفعل عبر التجار القادمين من الشمال، إلا أنه لم يتعمق بدرجة تجعل منه مرجعية للسلطة السياسية الحاكمة في مجتمع الملثمين، وهذا تفسره رحلة الأمير يحي بن عمر الكدالي الذي ذكر فيها أثناء حواره مع أبي عمران الفاسي بالقيروان، أن ما يصل إليهم من التجار لا علم لديه؛ يجهل قواعد الإسلام منقطعا مع التجارة[29]، ويمكن مرد تشدد المرابطين وفتحهم لأودغست إلى هذا العامل(تقويض رواسب التشيع)، ولو ذلك لما كان إسلام الملثمين سطحيا قبل القرن الخامس.

2- العلاقات السياسية في عصر المرابطين "عصر سيادة الملثمين على المغرب والأندلس":

لئن كان الملثمون قد ركزوا في المرحلة التي تناولها سابقا على التوسع نحو منطقة السودان من الشرق الجنوب، فإنهم خلال القرن الخامس بحثوا عن منافذ جديدة لتوسيع نفوذهم، فاتجهوا شمالا نحو المغرب الأقصى، وذلك بعد عودة أميرهم حينئذ يحي بن عمر الكدالي من رحلته الحجية نحو المشرق.

ا- الأمير يحي بن عمر وبداية سيادة الملثمين على بلاد المغرب الإسلامي:

يعتبر يحي عمر الكدالي الصنهاجي من أبرز قادة الملثمين في القرن الخامس الهجري، وقد خرج في رحلة إلى الحج سنة 427هـ/1036م وخلال قفوله إلى بلاده مر بمدينة القيروان حيث التقى هناك بأبي عمران الفاسي الذي سأله عن دينه وبلاده، وأخبره بالوضعية التي تعيشها الصحراء من جهل بمقتضيات الدين وطلب منه أن يبعث معه أحد طلبته لنشر الدين وفق المذهب المالكي السني، الأمر الذي دعا أبي عمران إلى إرشاده إلى وجاج بن زللو اللمطي في المغرب الأقصى[30]، والذي بعث معه ابن صحرائه ومجتمعه الفقيه عبد الله بن ياسين بن مكو الجزولي[31]، فقدم معه إلى موطنه وكان حينئذ تحت إمرة ابنه إبراهيم بن يحي الذي أمّره والده قبل رحلته الحجية[32].

ويعتبر ابن ياسين أحد أبناء الملثمين الخلص، فهو ينحدر من المنطقة نفسها لا من المغرب الأقصى، فلم تذكر المصادر أنه ولد بالمغرب الأقصى، وإنما حددت مولده بقرية صنهاجية تسمى "تماماناوت" في طرف مضارب الملثمين المصاقب لمملكة غانا؛ فقد ذكر البكري أن أمه صنهاجية من قبيلة جزولة[33]، فهو سليل عائلة صنهاجية من الملثمين ولا صلة له بالمغرب الأقصى، وسبب وجوده هناك هو خلو الصحراء وقتها من الفقهاء، الأمر الذي دعاه إلى الرحيل شمالا في طلب العلم على عزار ما كان شائعا في ذلك العصر، وقد قادته رحلته إلى الأندلس التي دخلها في عصر الطوائف ودرس بها على كبار الفقهاء مدة سبع سنوات[34].

ولم يكن ابن ياسين أميرا للمرابطين طيلة أيامه معهم بصحرائهم وخلال فتحهم منطقة المغرب الأقصى، وإنما كان مرشدهم الديني وقائدهم الروحي لا الحربي(فلم يكن سوى مستشارهم الديني بلغة عصر اليوم)، والدليل القاطع في ذلك عدم توليه أمر صنهاجة بعد وفاة الأمير يحي، فلم يجرؤ أن يطلب البيعة لنفسه لعلمه أن دوره يقتصر على التعاليم الدينية؛ فالأمير الفعلي إبان مجيئه هو يحي بن إبراهيم الذي قاد العمليات الحربية ضد جموع قبيلة كدالة التي رفضت الانصياع لأوامر ابن ياسين وقاتله إلى جانب من معه من الملثمين[35]، الأمر الذي اضطرهم إلى التحصن في حصن مدينة أزوكي التي أصبحت فيما بعد العاصمة الفعلية للمرابطين في الصحراء[36].

وخلال هذه المرحلة غرى ابن عمر رفقة قائدي الروحي ابن ياسين وجموع المرابطين مدينة أوغست، فأسقطوها سنة 446هـ/1054م وكانت وقتها ضمن مجال صنهاجة وحاضرة اقتصادية مزدهرة بها أعداد من قبائل الملثمين المداخلين لملك غانا، فأستولى عليها وأصبح أمير صحراء الملثمين بأسرها[37] وتوسع من خلالها إلى مناطق السودان المجاورة.

ونظرا لما كانت تعانيه منطقة المغرب الأقصى من جور وعسف الإمارات الزناتية بالرعية؛ وجه فقهاء سجلماسة ودرعة كتابا إلى ابن ياسين والأمير ابن عمر يدعونهم لغزوهم وفتح المنطقة، فسارع إليهم بجيش جرار من المرابطين سنة 447هـ/1055م بقيادة الأمير يحي بن عمر وانتصر عليهم بعد معاركة طاحنة أصبحت بعدها سجلماسة ودرعة جزءا من دولة الملثمين ومقر ملكهم حينها في أزوكي والمناطق الغربية من صحرائهم الشاسعة[38]، وقد توفي الأمير يحي بن عمر سنة 448هـ/1056م بعد أصبحت بقاع شاسعة من المغرب الأقصى خاضعة لسلطان المرابطين[39]، ويوجد قبره حاليا بالقرب من مقاطعة أوجفت في لاية آدرار الموريتانية؛ فقد وجد اسمه منقوشا هناك سنة 1985م، "محاطا بحائط يصل ارتفاعه نحو1.5م وطوله 3م وعرضه 2م، أي أنه عبارة عن بيت بني على القبر" وإلى جانبه مصلى بطول 3م وعرض 2م، تقابله صخرة نقشت عليها البسملة وسورة الإخلاص[40]، وقد خلفه على الدولة في الصحراء والمناطق التي فتحت من المغرب الأقصى، أخوه أبو بكر بن عمر اللمتوني.

ب- الأمير أبو بكر بن عمر وسيادة الملثمين على المغرب الأقصى:

بعد وفاة يحي بن عمر تولى قيادة المرابطين أبي بكر بن عمر اللمتوني فبايعه لحظة توليه أهل سجلماسة ودرعة، وكان وقئذ أميرا على منطقة درعة من قبل أخيه المتوفى يحي بن عمر[41]، وكانت مبايعته سنة 448هـ/1056م حسب رواية ابن أبي زرع[42]، و450هـ/1059م حسب رواية ابن عذاري[43]، وقد توجه بعد أن أخذ البيعة إلى قبائل زناتة وقاتلهم لمنعهم الزكاة حتى أخضعهم وولى عليهم رجلا من

Corresponding author:

أفاضل قبيلة لمتونة وترك بهم جيشا قويا وعاد إلى سجلماسة[44]، فلبث بها فترة، ثم أن انطلق في فتوحاته وتوجه إلى منطقة السوس فأخضعها وطاعه جميع ما بها من القبائل، ثم توجه إلى بلاد المصامدة وأغمات ففتحها سنة 449هـ/1057م وكان يتقدمه في جيشه ابن عمه يوسف بن تاشفين والمرشد الديني للحركة؛ أي حركة المرابطين، عبد الله بن ياسين[45].

وخلال هذه المرحلة توجه أبو بكر إلى قتال برغواطة المجوسية بتامستا وإنقاذ جهات ريف المغرب، فكانت له معهم وقائع مريرة استشهد في إحداها عبد الله بن ياسين سنة 451هـ/1059م[46]، واستمر بعده أبوبكر يجاهد برغواطة حتى استأصل شأفتهم ومحا أثر دينهم[47]، وكانت قاعدة ملكه في المناطق التي فتحها من المغرب الأقصى؛ مدينة أغمات التي تكاثر بها الناس لدرجة استدعت البحث عن مكان آخر يضرب فيه الناس خيامهم ويبنوا دورهم، وهوما دفع به إلى البدء في بناء مدينة مراكش لتكون العاصمة الفعلية للمرابطين بعد أزوكي في مهدهم دولتهم بالصحراء[48]، ولم يكتمل مشروع بناء هذه المدينة للأمير أبي بكر بسبب الاضطرابات التي حدثت في أرض مهد الدولة، الأمر الذي استدعاه إلى الرجوع سنة 463هـ/1072م وترك قيادة الجيوش وتدبير شأن المناطق التي فتحت تحت إمرة يوسف بن تاشفين[49]، ابن عمه القادم معه من مهد الدولة قبل توسعها نحو المغرب الإسلامي والأندلس.

والمتأمل لمسيرة فتوحات أبي بكر يجد أن حدود دولة المرابطين شمالا أصبحت تشمل بقاعا شاسعة من المغرب الأقصى، ولم يكن بمقدور الأمراء إدارتها من أزوكي المليئة بواحات النخيل في أرض منطلق الحركة، مما حتم عليهم البقاء والعمل على التوسع بغية إخضاع الكيانات السياسية التي كانت تتقاسم أرض المغرب الأقصى، وكان الأمير أبو بكر يروم في عودته تأمين الطرف الجنوبي من الدولة وتضييق الخناق على ممالك السودان الغربي المجاورة، ويُستشف ذلك من المعارك التي قادها بنفسه واستولى خلالها على تسعين حلة من بقاعهم[50] قبل أن يُغتال في إحداها سنة 480هـ/1087م[51]، ويوجد قبره الآن على بعد 70كلم جنوب مدينة تجكجة عاصمة ولاية تكانت وسط دولة موريتانيا[52]، وهي منطقة كانت ضمن أراض مملكة غانا إبان حروبه التي توفي في معركة منها.

وفي هذه الفترة كان ابن عمه يوسف بن تاشفين قد استولى على كامل أراض المغرب الأقصى وأجزاء كبيرة من المغرب الأوسط ويتطلع إلى جعل الأندلس جزءا من دولة الملثمين المترامية الأطراف.

ج- يوسف بن تاشفين: "والسيادة الكاملة للملثمين على المغرب الأقصى والأوسط[53] والأندلس":

شكل عصر يوسف بن تاشفين منعطفا حاسما في تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس، وتعتبر فترته من أزهى فترات حكم الملثمين بعد مقدمهم من صحرائهم وسيطرتهم على المنطقة، وقد نشأ ابن تاشفين

Corresponding author:

في مضارب الملثمين بدولة موريتانيا الحالية، ولما توجهت جموع المرابطين شمالا لإنقاذ منطقة سجلماسة ودرعة من جور أمرائها إثر الرسالة التي بعث بها فقهاء سجلماسة إليهم، كان في مقدمة الجيش وظل يتقدم في حملات متفرقة على مناطق من المغرب حتى قرر أبو بكر العودة إلى المنطلق الأصلي للمرابطين لقطع الفتنة التي دارت بين جدالة ولمتونة، فولاه مكانه سنة 463هـ/1072م وترك معه ثلث جيشه من قبيلة لمتونة، فعمل على بناء مراكش وتحصينها[54] لتكون مستقرا رسميا لحكم الملثمين نظرا لتعذر إدارة المناطق المفتوحة من مهدهم في الصحراء، وقد كان يُكاتب الأمير أبو بكر بكل مستجدات المغرب الأقصى، وهذا يعني أنه كان تابع له؛ أي أن ما كان بيد المرابطين حينئذ من المغرب الأقصى أصبح تابعا للأمير أبي بكر في مضارب الملثمين وجزءا لا يتجزأ من دولتهم وليس العكس، ويتضح من استقدام أبي بكر للإمام الحضري[55] وتنصيبه قاضيا في مدينة أزوكي أنه كان يروم جعلها عاصمة للدولة، ويبدو أنها بالفعل كانت ستكون العاصمة الفعلية وتصبح مراكش وباقي مناطق المغرب الإسلامي مجرد ولايات تُدار منها؛ إذ يتضح من خلال الشواهد الأثرية التي تعود لتلك الفترة أنها كانت مدينة محصنة[56]، وتذكر المصادر أنها كانت مدينة محتضرة في القرنين السادس والثامن[57]، مما يعني أنه لولا وفاة أبي بكر لَملك المرابطون السودان الغربي إلى جانب المغرب الإسلامي والأندلس وجعلوا عاصمتهم مدينة أزوكي في قلب مضاربهم الأصلية.

ورغم أن المصادر تذكر أن يوسف بن تاشفين استبد بأمر منطقة المغرب بعد رحيل أبوبكر، مما دعاه إلى التنازل له عنه[58]، وتعطي تفاصيل مضيئة عن المغرب الإسلامي والأندلس طيلة عصر المرابطين، إلا أنها لا تسعفنا بمعطيات يمكن من خلالها معرفة تفاصيل تاريخ الصحراء في عصر ما بعد أبي بكر، فجميع المصادر ركزت على أعمال يوسف وأبناءه من بعده وأهملت منطقة الصحراء.

وقد عمل يوسف بعد ابن عمر على فتح باقي مناطق المغرب الأقصى، فاستولى على فاس سنة 455هـ/م1063 وجعل عليها عاملا من لمتونة ثم بلاد غمارة ومكناس التي بايعه صاحبها المهدي بن يوسف الجزنائي في نفس السنة[59]، ومنطقة الريف ومدينة الدمنة بضاحية طنجة سنة 465هـ/1073م[60]، ثم مدينة فاس للمرة الثالثة سنة 462هـ/1070م ومدينة طنجة سنة 472هـ/1079م ثم تلمسان في المغرب الأوسط من العام نفسه وجزائر بني مزغنه وسائر بلاد المغرب الأقصى على فترات يسيرة من ذلك[61].

ونظرا لما شهدته الأندلس من تشرذم سياسي هيأ الفرصة للنصارى للزحف عليهم واقتطاع أجزاء منها، كاتب أمراؤها ومشايخها الأمير يوسف بن تاشفين بضرورة العبور إليهم والإسراع في ذلك، فعبر إليهم في

جيوش كبيرة من المرابطين وأهل المغرب، فدارت بينهم والنصارى المعركة الشهيرة، معركة الزلاقة بنواحي بطليوس سنة 479هـ/1086م[62]، وبعدها بنحو خمس سنوات وتحديدا سنة 484هـ/1091م أصبحت معظم قواعد الأندلس تابعة للدولة المرابطية، ولم يزل يوسف يبعث إليها جيوشه حتى ملكها قاعدة تلو الأخرى "واستوثق له أمرها"[63].

وبذلك يصبح الملثمون القادمون من الصحراء(موريتانيا الحالية والصحراء الغربية) أول من سيطر على المغرب الإسلامي والأندلس وأول من ينشر المذهب المالكي في مناطق من المغرب الأقصى كانت تشهد انحرافا في المعقد الديني، وأول دولة تجاهد النصارى في الأندلس وتفشل مشروعهم الصليبي الاسترادادي ردحا طويلا من الزمن.

وجدير بالملاحظة أنه في عصر يوسف بن تاشفين بدأت إرهاصات انفصال الصحراء سياسيا عن منطقة المغرب الإسلامي والأندلس، فبعد أن كانت منطقة المغرب الأقصى تابعة لصحراء الملثمين، يُرسل ابن تاشفين كل مستجداتها للأمير أبي بكر بعد عودته الأولى إليها حسب ما ذكره ابن عذاري[64]، فإنه من الواضح أن تنازل الأمير أبي بكر عن الإمارة في المغرب جعلته وأبناءه من بعده يرومون الاستقلال بدولة في الصحراء، ولا أدل على ذلك من فتوحاته في منطقة السودان[65] وتوجه ابنه إبراهيم بن أبي بكر صوب المغرب الأقصى لاسترجاع ملك أبيه، وهي الأمنية التي لم تكلل بالنجاح وانتهت بهدايا رجع بها إلى موطنه الأصلي[66].

ومن الراجح – رغم شح المصادر – أن أبناء الأمير أبي بكر أقاموا دولة في الصحراء ظلت قائمة حتى مجيء قبائل بني حسان(هجرة بي هلال) نهاية العصر الوسيط[67]، وقد لا نجانب الصواب إذا قلنا أن عمل ابن عمهم يوسف على استقدام مجموعات من القبائل الصنهاجية في الصحراء[68] كان الدافع إليه التوجس من أن يصبح أبناء أبي بكر في دولة قوية وتسول لهم أنفسهم استرجاع ملك أبيهم مجددا، ولا نجد في المصادر ما شير إلى تدخل سياسي أو حربي للأمير يوسف في الصحراء، ومرد ذلك يعود إلى حالة السلم التي سادتها وتركيزه على توسيع نفوذه في المغرب الإسلامي والأندلس، ولا نستبعد أن يكون الأمير أبو بكر قد ترك وصية لأبنائه بإقامة دولة قوية عاصمتها أزوكي وضم منطقة المغرب الإسلامي إليها ونرى أن عمل الأمير يوسف على استقدام القبائل الصنهاجية واستعمالها في مفاصل الدولة هو ما حد من قوتهم وأفشل مشروعهم.

وسنرى في المحور الموالي أن الصحراء بعد سقوط حكم المرابطين عادت إليها مختلف المجموعات الصنهاجية بما فيها تلك التي وفدت على ابن تاشفين في مراكش مستقر ملك الملثمين بعد فتح المغرب، وأنها شكلت كيانات سياسية قوية مستقلة معادية لأمراء وخلفاء المغرب الأقصى.

3- صحراء الملثمين في عصر ما بعد المرابطين *"القطيعة السياسية مع الموحدين وبني مرين"*

بعد أن سقطت دولة المرابطين نزحت معظم المجموعات الصنهاجية التي كانت عماد قوة الدولة في المغرب والأندلس إلى الصحراء خوفا من بطش الموحدين، وتُعزي الروايات الشفهية والمصادر التاريخية نشأة الحواضر العلمية العتيقة إلى وصول هذه المجموعات وتقاسمها المجال الشنقيطي، كما تعزي إليها تكوين كيانات سياسية قوية بسطت نفوذها على مناطق شاسعة من الصحراء؛ فعلى الرغم من غموض تاريخ المنطقة طيلة هذه الفترة؛ أي فترة ما قبل وصول القبائل الحسانية إلى موريتانيا وشح المصادر التي تحدثت عنها، فإن بعض الباحثين استطاع أن ينير جوانب من هذا الغموض ويعطي صورة مضيئة عن هذه المرحلة، فحسب ما ذهب إليه حماه ولد السالم الذي يعتبر أبرز من كتب عن هذه المرحلة حتى الآن، فإن صحراء الملثمين "كانت مسرحا لتوازنات بشرية كتل صنهاجية ذات سيادة على مناطق مختلفة؛ ففي منطقة "القبلة" (جنوب غرب موريتانيا) كانت السيطرة السياسية وحماية المنطقة الجغرافية بيد قبيلة إنيرزيك، وفي منطقة تكانت والرقيبية(شرقي البلاد) كانت السيطرة لقبيلة الأنباط"[69] أما في منطقة الشمال الغربي من البلاد انطلاقا من أدرار الموريتانية حتى الساقية الحمراء بالصحراء الغربية حاليا، فقد كان المجال لإمارة " إبدّوكَلْ" اللمتونية، وقد نشأت هذه الإمارة خلال النصف الأول من القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي، إلى جانب إمارة انيرزك في جنوب غرب موريتانيا الحالية[70].

وتعتبر إمارة ابدوكل امتدادا لدولة المرابطين، فهي بحسب حماه ولد السالم "دولة المرابطين الصغرى"، وتعني كلمة ابدوكل التجمع والتداخل والتحالف، وهي صفة ملازمة لجيش ابن غانية الذي التفت حوله مجموعة كبيرة من قبيلتي مسوفة ولمتونة وأعداد من عرب بني هلال وفئات من أمم أخرى وبعض الفقهاء، "ومفرد بدوكل يدوك ومعناه الصاحب أو الرفيق وهي رمز لجيش ابن غانية وشعارا لحركته الثورية"[71]، ومن المعروف أن ابن غانية دوخ في ثورته ضد الموحدين بقاع شائعة من المغرب الإسلامي، وتقول الرواية الشفهية أنه وصل إلى مدينة وادان الحالية في موريتانيا وأدار عليها سورها الأثري الحالي[72]، وهي المدينة الوحيدة المسورة في البلاد خلال العصر الوسيط، وقد تأسست بعد سقوط دولة المرابطين على أيدي عدد من رجالهم الذين نزحوا إلى صحرائهم خوفا من الموحدين، شأنها في ذلك شأن مدينة شنقيط العتيقة وتينيكي وتيشيت[73]؛ فإمارة ابدوكل ليست سوى تكتل من جيش المرابطين وحركة ابن

غانية نزح إلى الأجزاء الشمالية والغربية من مجال الملثمين واختلط مع باقي مكونات المجتمع الصنهاجي بها وكونوا بها إمارة قوية.

وقد كانت هذه الإمارة تعتمد أساسا على الإتاوات والضرائب المفروضة على القوافل التجارية التي تمر من المنطقة، وكذلك المغارم وسباخ الملح الموجودة بها[74]، أما إمارة انيرزيك في الجنوب الغربي فلا نعرف الكثير عن مواردها، وقد تفكك كيانها تحت ضربات قبائل أولا رزك(طائفة بني حسان الأولى) التي أسست أول إمارة حسانية في البلاد[75]، ولم تسعفنا المصادر بمعلومات شافية عن قبيلة الأنباط التي كانت تسيطر على منطقة تكانت والرقيبة، ويتضح مما أورده ابن بطوطة عن ولاته في القرن الثامن أن تلك المنطقة أصبحت تابعة سياسيا لدولة مالي؛ حيث أصبح يعين عليها أحد قادة العائلة الحاكمة، يساعده أعيان قبيلة مسوفة في مدينة ولاته التي كانت من أبرز محطات القوافل التجارية القادمة من المغرب الأقصى صوب حواضر السودان[76].

ورغم الصلات التجارية الدائبة للمنطقة مع المغرب الإسلامي في عصر هذه الإمارات الذي يصادف عصري الموحدين وبني مرين، فإن العلاقات السياسية بينهما كانت مبتورة تماما، فلم تجرء أي دولة من هاتان الدولتان أن تلامس الحدود الشمالية لهذه الإمارات أو تدخل معها في صراع أو علاقات سياسية، ويعود ذلك إلى كونها تنحدر من القبائل التي أسست دولة المرابطين وكانوا على نقيض مع الموحدين ويسعون لاستعادة ملكهم في المغرب، وسنرى لاحقا أن الأجزاء الجنوبية من المغرب الأقصى كانت مجالا للقبائل العربية الهلالية خلال القرن 14م[77]، وسيدخلون في صراع مع الدولة المرينية قبل أن ينزحوا جنوبا صوب صحراء الملثمين.

4- الملثمون ودخول قبائل بني حسان، أية علاقة سياسية بالمغرب الأقصى حتى مجيء المستعمر الفرنسي:

ظلت القبائل العربية قبل هجرتها نحو صحراء الملثمين تنتجع في المنطقة الواقعة ما بين درعة شرقا والمحيط الأطلسي غربا، وكانت تتقاسم قفار المغرب الأقصى وجنوب المغرب الأوسط، وتعرف هذه القبائل ببني حسان وهم فرع من بطون المعقل الكثيرة التي دخلت بلاد المغرب في القرن الخامس، وقد كانوا ينتجعون في القِفار من وادي درعة ويتوغلون جنوبا حتى محاذاة صحراء الملثمين، فقد ذكر ذلك ابن خلدون في كتابه العبر حين قال:"وينتجعون كلهم في الرمال إلى مواطن الملثمين من كدالة ومسوفة ولمتونة"[78]، وذكر أن أمراءهم ينزلون منطقة نول ويستولون على كامل السوس الأقصى وما إليه من مناطق[79]، ومن المعلوم أن مدينة نول لمطة كانت الحد الشمالي من مجال الملثمين؛ فقد ذكر الإدريسي

 Corresponding author:

أنها أقرب مدينة إليهم من الشمال[80]، يبدو أنهم كانوا يمتدون على مجال واسع يشمل منطقة السوس وجنوب المغرب الأوسط وتحديدا مدينة وركلان(ورقلة) وإقليم توات وتامنطيت إلى تيكورارين شرقا[81].

وقد دخلت هذه القبائل في صراع مع المرينيين؛ حيث أثخن فيهم يعقوب بن عبد الحق المريني(656- 685هـ/1258- 1286م) وحاصرهم ابنه يوسف بن يعقوب(685- 701هـ/1286- 1306م)، ودارت بينه معهم حروب مريرة سنة 786هـ/1384م، فاضطروا للتقدم جنوبا صوب الساقية الحمراء[82].

وقد دارت أولى حروبهم ضد القبائل الصنهاجية في الصحراء انطلاقا من منطقة إكيدي شمال ولاية أدرار الموريتانية والصحراء الغربية حاليا، استمرت مدة من الزمن، أسفرت في نهاية المطاف عن الإطاحة بإمارة بدوكل أواخر القرن8هـ/14م[83]، ويعود ذلك إلى عدة عوامل في مقدمتها انهيار اقتصاد هذه الإمارة الذي كان يعتمد على الضرائب المفروضة على القوافل التجارية القادمة من وإلى السودان، والذي نتج عن تحول القوافل إلى المحور الشرقي بفعل عمليات السلب والنهب والإغارة، فضلا عن تراجع مداخيل سباخ الملح التي أصبحت تهيمن عليها ممالك السودان الغربي[84].

وإلى جانب العامل السياسي والاقتصادي ساعد تشابه نمط الحياة في الصحراء بين صنهاجة وبني حسان ووحدة المذهب السني المالكي على استقرارهم بها وتأسيس كيانات سياسية ظلت قائمة حتى مجيء الاستعمار الفرنسي[85]، وكانت تتقاسم مجال الملثمين بكامله ما عدى الصحراء الغربية التي تكتلت بها هي الأخرى قبائل حسانية قوية مستقلة بذاتها مع المجموعة الصنهاجية المستقرة هناك وتأنفت عن الدخول في علاقات سياسية مع أمراء مراكش وفاس[86].

ولقد كانت هذه الكيانات التي تعرف في المجال الموريتاني بالإمارات الحسانية (إمارة الترارزة، إمارة البراكنة، إمارة آدرار، إمارة أولاد امبارك، إمارتا مشظوف وإدوعيش الصنهاجيتان) أول تنظيم سياسي في البلاد تصلنا عنه إشارات مفصلة في المصادر بعد عصر المرابطين، وقد عرفتها البلاد خلال القرن (11هـ/ 17م)، ولم تكن لها تبعية سياسية للمغرب الأقصى أو بلاد السودان، وقد اشتهر قادتها بالقوة والعزة والإباء وسعى بعضهم إلى الاستحواذ على مجال بعضهم الآخر[87]، ولم يتصل منهم بأمراء المغرب الأقصى سوى أمير إمارة الترارزة؛ اعل شنظورة الذي وفد على مراكش يطلب المدد من المولى إسماعيل سنة 1720م بهدف حسم الصراع الدائر بين الأوروبيين على جزيرة آرغين؛ المحطة التجارية الأبرز على البحر وقطعا كذلك لأطماع المولى إسماعيل نفسه الذي طلب من الأمير الإذن بالاستحواذ عليها، ولم يزود المولى إسماعيل الأمير التروزي بأي جيش من مراكش وإنما أمر بعض القبائل الموجودة في جنوب المغرب بالسير معه دون قيد أو شرط[88]، ولم يجرئ على أن يطلب منه مبايعة لعلمه بمكان عليه الأمير

من عزة وإباء، ولم يتصل أي أمير من أمراء إمارة الترارزة بعد ذلك بسلاطين المغرب، وكانت إمارتهم مثل باقي الإمارات لها مجال جغرافي شاسع في جنوب غرب البلاد وبها جباة الضرائب والقضاة، وتفصلها إمارة أولاد يحي بن عثمان في الشمال(إمارة آدرار) وأراض الصحراء الغربية عن المجال الجغرافي لسلاطين مراكش، وجل علاقاتها السياسية ولاقتصادية – إن لم تكن بكاملها– كانت مع الفرنسيين والأوروبيين الذين يتاجرون في مجالها الجغرافي على الشواطئ الأطلسية، وقد ظلت تلك العلاقات سارية ويتخللها تدخل مباشر وغير مباشر للفرنسيين في شؤونها السياسية وباقي الإمارات الأخرى ولا سيما جارتها الشرقية؛ إمارة لبراكنة حتى مرحلة الاستعمار المباشر مطلع القرن العشرين[89].

وقد امتازت جميع هذه الإمارات بالقوة والأنفة وامتد نفوذ بعضها على مناطق شائعة من أرض مالي الحالية ونعني بذلك إمارة أولاد امبارك في الحوضين[90]، وامتذ نفوذ بعضها الآخر جنوبا خلف الضفة اليسرى لنهر السنغال ولا سيما إمارة الترارزة التي كانت تسطير في بعض الفترات على كامل منطقة والوا[91].

ومما ينفد الأطروحات التوسعية حيال العلاقات السياسية لهذه الإمارات بالمغرب الأقصى؛ الحملة السعدية على مملكة السونغاي الإسلامية بالسودان الغربي، فعلى الرغم من أنها مرت بالقرب من حدودها الشمالية الشرقية وأطاحت بالعائلة الحاكمة بغية السيطرة على مناجم الذهب وسباخ الملح، فإن قائدها لم تسول نفسه الدخول إلى مجال الإمارات الموريتانية المحاذية له من الغرب وهي يومئذ في إرهاصات التشكل[92].

وتجدر الإشارة إلى أن أراض الصحراء الغربية الحالية فترة هذه الإمارات شهدت مقدم الشيخ ماء العينين من شرق ربوع شنقيط وتحديد ولاية الحوض الشرقي بالحدود مع مالي؛ حيث أسس بها زاويته المشهورة، وكانت تتقاسم معه المجال الصحراوي قبائل صنهاجية وعربية متعددة تتقاطع مع المجتمع الموريتاني في نمط الملبس" الدراعة والملحفة" والعادات الاجتماعية، واللغة، وهي نفسها الموجودة في جنوب الجزائر بمنطقة تيندوف وشمال دولة مالي بأزواد، وسبق أن مر بنا أن هذه المنطقة؛ الصحراء الغربية، كانت ضمن مجال إمارة بدوكل الصنهاجية التي تأسست بعد سقوط دولة المرابطين، ثم القبائل العربية التي قضت على هذه الإمارة، ومن المعلوم أنها لم ترضخ لسلاطين مراكش؛ وفضلت الاستقلال والانزواء في القفار، والدليل في ذلك أن مولاي الحسن الأول بعث سنة 1886 مبعوثين إلى أمرائها وسادتها بهدف إقناعهم بالانضمام له والاعتراف بسيادته[93]، وهو أمر يكفي لنسف نظرية وأطروحات التبعية المزعومة؛ إذ لم تقبل هذه القبائل سيادة أحد أمراء مراكش عليها، ومما يعضد ذلك انكفاء إسبانيا

على السواحل وترك عمق الأراض الصحراوية لسيادة المواطنين حتى سنة 1958؛ حيث أرغمتها فرنسا على قطع الطريق على المقاومين الموريتانيين الذين كانت الصحراء ملجئا لأفراد منهم وجهوا لها ضربات قوية[94]،

وقد دخلت هذه المنطقة من مجال الملثمين أتون أزمنة عويصة كان بالإمكان تجنبها لو أن إسبانيا أنصفت المجموعة السكانية بها ولم تجعلهم عرضة لأطماع توسعية شلت وحدة أراضيهم أوضحنا من خلال الدراسة أنها لا تستند على أساس قانوني أو تاريخي في تلك المزاعم، وهي نفس المزاعم التي واجهت موريتانيا إبان مرحلة استقلالها وأفشلتها إرادة الراحل المختار بن داداه والمخلصين معه بعد نضال طويل.

الخاتمة:

يتضح من خلال الدراسة أن صحراء الملثمين تمتد على مجال جغرافي شاسع تقطنه مجموعات بشرية متنوعة ومتداخلة انصهرت فيها بينما وكونت كيانات سياسية قوية منذ القرون الهجرية الأولى، وكانت في فترات عزها تقتطع أجزاء من منطقة السودان المجاورة من الشرق والجنوب، ولا تزال تتميز بخصائص ذاتية عصية على الاختراق وعادات ثقافية تميزها عن بلاد السودان ومعظم مناطق المغرب الإسلامي المجاور من الشمال، وقد توصلنا في دراستنا هذه حولها إلى مجموعة من الاستنتاجات هي النحو التالي:

- أن هذه المنطقة كانت صحاري منها الفيقاة التي تنعدم فيها المياه والمراعي، الأمر جعل أهلها يعتمدون على تنمية الماشية خاصة الإبل، ويتاجرون نحو سجلماسة وباقي مناطق المغرب الإسلامي والسودان وتصل صادرتهم حتى الأندلس شمالا.
- أنها كانت تتوسط المغرب الإسلامي والسودان الغربي وهو ما جعلها تعلب دورا محوريا في حماية القوافل التجارية عبر أدلاء ذوي خبرة في الفجاج الرملية والمسالك الجبلية الوعرة وحفر الآبار واحتواء القوافل في قرى وتجمعات بالصحراء قبل وصولهم مناطق العبور ومن وإلى ممالك السودان.
- أن الحاضرة العمرانية الأهم والأبرز في صحراء الملثمين خلال مرحلة ما قبل المرابطين من العصر الوسيط كانت مدينة أودغست، فهي العاصمة الاقتصادية والسياسية لملوك وأمراء صنهاجة في تلك الفترة، وانطلاقا منها وطدوا علاقاتهم السياسية مع الممالك السودانية التي امتد نفوذهم على بقاع شاسعة منها وأصبحت تدين لهم بالولاء فترات القوة والازدهار، خاصة فترة تيولتان بن تلاكاكين التي يتضح من خلالها أن صحراء الملثمين كانت موحدة في ظله ويمتد منها

نفوذه حتى الأطراف الجنوبية من المغرب الإسلامي شمالا ولم يدخل في أي علاقات سياسية أو روحية مع الكيانات السياسية التي تأسست بها في فترته بما فيها الأدارسة، شأنه في ذلك شأن جميع ملوك صنهاجة من بعده طيلة فترة ما قبل تأسيس دولة المرابطين.

- أن المنطقة بعد ظهور المرابطين أصبحت مناطق المغرب الأقصى الجنوبية في سجلماسة ودرعة تابعة لها سياسيا إلى أن تأسست مراكش وعاد أبوبكر بن عمر إلى أرض منطلق الدولة؛ حيث أراد أن يفتح كامل منطقة السودان ويجعل عاصمة الدولة مدينة أزوكي بدل مراكش، وهو المشروع الذي لم يكتمل بسبب وفاته وساعد على نشأة إمارات صنهاجية بعد سقوط دولة المرابطين معادية للموحدين، ظلت مستقلة عنهم سياسيا وعن المرينيين من بعدهم، شأنها في ذلك شأن الإمارات والمشيخات الحسانية التي أسستها القبائل العربية مع المجتمع الصنهاجي والتي امتازت بالقوة واتساع النفوذ واستجمعت كامل مقومات الأمة والدولة المستقلة ذات السيادة المطلقة على كامل الصحراء، وهي مسلمات تاريخية ثابتة تكفي لدحض مزاعم أصحاب النزعة التوسعية الذين لا يزال بعضهم يتعالى على الحدود الجغرافية والبشرية فضلا عن الحدود التي رسمها الاستعمار الفرنسي، ويرسم حدودا لم تبلغها أي دولة في المغرب الأقصى على مر تاريخيها، إذ لم تتأسس على أرضها دولة تمتد حدودها حتى نهر السنغال.

الحواشي:

[1]– عبد الودود ولد عبد الله(ددود): الحركة الفكرية في بلاد شنقيط حتى نهاية القرن الثاني عشر– (18م)، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، ط1، 2015، ص: 38– 39

[2]– اليعقوبي: البلدان، وضع حواشيه محمد أمين ضاوي: منشورات دار الكتب العلمية، بيروت، 2002، ص: 199

[3]– ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصورة للطباعة والوراقة، الرباط ، 1972، ص:120– 121

[4]– ابن خلدون؛ عبد الرحمن بن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر وتاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ضبط متنه ووضع حواشيه وفهارسه، خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، سنة 2000، ج6، ص: 241

[5]– نفس المصدر، ص: 242

[6]– البكري؛ أبو عبيد الله البكري: المسالك والممالك، تحقيق جمال طلبة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2003، ج2، ص: 345

[7]– نفس المصدر ونفس الصحفة

[8]– ابن خلدون: المصدر السابق، ج6، ص: 242

[9]– راجع إبراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ: دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، المملكة المغربية، طبعة 2000، ج1، ص: 138 وما بعدها.

[10]– حماه الله ولد السالم: تاريخ بلاد شنكيطي (موريتانيا) من العصور القديمة إلى حرب شربيه الكبرى، بين أولاد الناصر ودولة بدوكل اللمتونية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2010، ص: 46

[11]– يذكر حماه الله ولد السالم أمراء قبله كانوا يدينون بالولاء للفهريين، انظر نفس المرجع، ص: 47

[12]– ابن الأحمرن؛ إسماعيل بن الأخمر: بيوتات فاس الكبرى، دار المنصورة للطباعة والوراقة، الرباط، 1972، ص: 27

[13]– ابن خلدون: مصدر سابق، ج6، ص: 241

[14]– ابن عذاري: أبو العباس أحمد بن محمد المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق، ج.س. كولان وليفي بروفينصال، دار الثقافة، بيروت، ط3، 1983، ج1، ص: 210

[15]– نفس المصدر، ص: 211

[16]– ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص: 53

[17]– من خلال رحلة يحي بن عمر التي أسفرت من مقدم عبد الله بن ياسين، يتضح أن إسلام الملثمين كان سطحيا، راجع، ابن عذاري: المصدر السابق، ج4، ص:7

[18]– الناني ولد الحسين: صحراء الملثمين وعلاقاتها بشمال وغرب إفريقيا من منتصف القرن (2هـ/8م) إلى نهاية القرن (5هـ/11م)، دار المدار الإسلامي، بيروت، ط1، 2007. نسخة إلكترونية: ص: 242

[19]– ابن أبي زرع: مصدر سابق، ص: 85

[20]– نفس المصدر، ص:91. إبراهيم حركات: مرجع سابق، ص:138

[21] JEAN DE: VISSE : « Route de commerce et échanges en Afrique occidentale en relation avec la Méditerrané » *Revue d'Histoire économique et sociale*, N°1 et 3, p : 357

[22]– راجع صودت عبد الكريم يوسف: العلاقات الخارجية للدولة الرستمية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر،1984، ص: 233

[23]– البكري: مصدر سابق، ج2، ص: 344

[24]– ابن خلدون: مصدر سابق، ج6

[25]– حماه الله ولد السالم: مرجع سابق، ص: 47

[26]– DENISE ao .devisée : tegdaoust.I, recherches sur Aoughost, paris, 1970,p: 134

[27]– ياقوت الحموي، شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله: معجم البلدان، دار صادر، بيروت، 1977، ، ج1، ص: 278

[28]– البكري: مصدر سابق، ج2، ص: 344، الحموي: المصدر نفسه والصفحة نفسها.

Corresponding author:

[29]– ابن عذاري: البيان المغرب في الأندلس والمغرب، تحقيق ومراجعة إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ط3، 1983، ج4، ص: 7

[30]– ابن أبي زرع: مصدر سابق، ص: 123

[31]– ابن خلدون: مصدر سابق، ج6، ص: 243

[32]– ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص: 122

[33]– البكري: مصدر سابق، ج2، ص: 352

[34]– مجهول: الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، مؤلف أندلسي من القرن الثامن الهجري، تحقيق: سهيل زكار وعبد القادر زمانة، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، المملكة المغربية، ط1، 1979، ص: 20

[35]– ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1، 1977، ص: 348، وابن عذاري: مصدر سابق، ج4، ص: 14

[36]– نفسه ابنه عذاري والصفحة نفسها.

[37]– ابن أبي زرع: مصدر سابق، ص: 126، البكري: مصدر سابق، ج2، ص: 355

[38]– نابن عذاري: المصدر السابق، ج4، ص: 13–14، وابن أبي زرع، ص: 128

[39]– نفسه ابن أبي زرع والصفحة نفسها، كذلك البكري: المصدر السابق، ص: 355

[40]– الناني ولد الحسين: مرجع سابق، ص: 142

[41]– ابن عذاري: المصدر السابق، ج4، ص: 14

[42]– راجع الأنيس المطرب، ص: 128

[43]– البيان المغرب، ج4، ص: 14

[44]– نفس المصدر، ص: 15

[45]– ابن أبي زرع: مصدر السابق، ص: 128– 129، وابن عذاري: المصدر نفسه، ص: 15

[46]– ابن خلدون: مصدر سابق، ج6، ص: 244

[47]– نفس المصدر ونفس الصفحة

[48]– الحلل الموشية: مصدر سابق، ص: 23، كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار لمؤلف مجهول، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1985، ص:208– 209

[49]– ابن عذاري: مصدر سابق، ج4، ص: 20، الحلل الموشية : المصدر نفسه والصفحة نفسها. وفي رواية ابن أبي زرع أن أبي بكر عاد إلى الصحراء سنة 453 للهجرة. راجع الأنيس المطرب، ص: 138

[50]– ابن خلدون: المصدر السابق، ج6، ص: 245

[51]– ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص: 135– 136

Corresponding author:

[52]– الناني ولد الحسين: مرجع سابق، ص: 144

[53]– لم يسيطر المرابطون على كامل المغرب الأوسط وإنما توقفوا في جزائر بني مزغنة(الجزائر العاصمة حاليا)، وباقي البلاد كان تحت سيطرة أبناء عمومتهم بني حماد.

[54]– ابن عذاري: مصدر سابق، ج4، ص:20

[55]– تترجم له المصادر على أنه توفي بصحراء المغرب والمقصود بالمغرب هنا المغرب الإسلامي لا المغرب الأقصى، والصحراء هي صحراء الملثمين، وقد توفي سنة 489هـ وقبره موجود حاليا في مدينة أزوكي شمال موريتانيا. راجع ابن بشكوال، أبو القاسم خلف بن عبد الملك (ت 578هـ/1083م): الصلة، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري– القاهرة، ودار الكتاب اللبناني– بيروت، ط1، 1989، ج3، ص: 873– 874.

[56]– راجع روبير فيرني وآخرون: "الأركيولوجيا في موريتانيا"، ضمن كتاب "الأركيولوجيا في إفريقيا الغربية الصحراء والساحل"، ترجمة بوبه ولد محمد نافع، جامعة نواكشوط، 2002، ص: 171

[57]– راجع الإدريسي، محمد بن عبد الله: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2002، ج1، ص: 225، والعمري، شهاب الدين أحمد بن يحي: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق مهدي النجم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2010، ج1، ص: 462

[58]– ابن عذاري: مصدر سابق، ج4، ص: 23– 24، وابن خلدون: المصدر السابق، ج6، ص:245

[59]– ابن أبي زرع: مصدر سابق، ص: 139–140

[60]– نفس المصدر، ص: 142

[61]– نفس المصدر، ص: 142– 143

[62]– نفس المصدر، ص: 149، كذلك بن خلدون: مصدر سابق، ج6، ص: 248

[63]– الحلل الموشية: مصدر سابق، ص:72، ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص:156

[64]– راجع ابن عذاري: مصدر سابق، ج4، ص: ص: 22

[65]– ابن خلدون: المصدر السابق، ص: 245

[66]– ابن عذاري: المصدر السابق، ج4، ص: 29–30

[67]– انظر الناني ولد الحسين: مرجع سابق، ص:144

[68]– الحلل الموشية: مصدر سابق، ص: 33

[69]– حماه الله ولد السالم: مرجع سابق، ص: 155

[70]– نفس المرجع ونفس الصفحة

[71]– نفس المرجع، ص: 156

[72]– راجع وثائقي من إنتاج قناة الموريتانية(برنامج موريتانيا الأعماق)على الرابط https://www.youtube.com/watch?v=I4QH8zAhCTA، زيارة بتاريخ 02/08/ 2023

[73]– انظر المختار بن حامد: حياة موريتانيا، جزء الحياة الثقافية، الدار العربية للكتاب، (د، س، ن)، ج2، ص: 198، وص ص: 201– 204. الخليل النحوي: بلاد شنقيط المنارة والرباط، عرض للحياة العلمية والإشعاع الثقافي والجهاد الديني من خلال الجامعات البدوية المتنقلة(المحاضر) المنظمة العربية للثقافة والعلوم، تونس، 1987، ص ص: 71– 42

[74]– حماه الله ولد السالم: المرجع السابق، ص: 160

[75]– نفس المرجع، ص: 171

[76]– ابن بطوطة؛ محمد بن عبد الله بن إبراهيم: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تقديم وتحقيق محمد عبد المنعم العريان، دار إحياء علوم الدين، بيروت، ط1، 1987، ص: 689

[77]– راجع ابن خلدون: مصدر سابق، ج6، ص: 91– 92

[78]– نفس المصدر، ص:77

[79]– نفس المصدر ونفس الصفحة.

[80]– ومن الجنوب كانت أقرب مدينة لهم أزوقي وهذا المجال هو مجال دولة الصحراء الغربية الحالية وشمال غرب موريتانيا. انظر الإدريسي: مصدر سابق، ص: 224

[81]– ابن خلدون : المصدر السابق، ج6، ص: 78

[82]– حماه الله ولد السالم: مرجع سابق، ص: 164

[83]– محمد المحجوب ولد بيه: موريتانيا جذور وجسور، مكتبة القرنين 15/ 21 للنشر والتوزيع، نواكشوط، ط1، 2016، ص: 138

[84]– حماه الله ولد السالم: المرجع السابق، ص: 165

[85]– الحسين بن محنض: تاريخ موريتانيا الحديث من دولة الإمام ناصر الدين إلى مقدم الاستعمار الفرنسي(1055– 1322هـ/1645– 1905م)، مطبعة دار الفكر– نواكشوط، ط1، 2010، ابتداء من ص: 45

[86]– راجع الداهية ولد محمد فال المختار: موريتانيا وقضية الصحراء من الحرب إلى الحياد، قراءة في الحصيلة والآفاق، مركز الجزيرة للدراسات، الدوحة، ط1، 2015، ص:39

[87]– راجع محمد المحجوب ولد بيه: مرجع سابق، ص: 142. الحسين بن محنض، ص: 49، 51، 55.

[88]– نفسه الحسين بن محنض، ص:54

[89]– انظر نفس المرجع، ص ص: 55– 101، ص ص: 105– 107، وكذلك حماه الله ولد السالم: مرجع سابق، ص ص: 310– 319

[90]– نفسه حماه الله ولد السالم، ص: 312

[91]– الحسين بن محنض: المرجع نفسه، ص: 55

Corresponding author:

[92]– كانت القبائل العربية في هذه الفترة قد دخلت إلى المنطقة وفي إرهاصات تأسيس الإمارات الكبرى. راجع حماه الله ولد السالم، المرجع السابق، ص: 244

[93]– الداهية ولد محمد فال المختار: مرجع سابق، ص: 39

[94]– نفس المرجع، ص:38

قائمة المصادر والمراجع:

1. إبراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ: دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، المملكة المغربية، طبعة 2000، ج1.
2. ابن الأحمر، إسماعيل بن الأحمر: بيوتات فاس الكبرى، دار المنصورة للطباعة والوراقة، الرباط، 1972.
3. الإدريسي، محمد بن عبد الله: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2002، ج1
4. ابن بشكوال، أبو القاسم خلف بن عبد الملك : الصلة، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري– القاهرة، ودار الكتاب اللبناني– بيروت، ط1، 1989، ج3.
5. ابن بطوطة، محمد بن عبد الله بن إبراهيم: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تقديم وتحقيق محمد عبد المنعم العريان، دار إحياء علوم الدين، بيروت، ط1، 1987
6. البكري، أبو عبيد الله البكري: المسالك والممالك، تحقيق جمال طلبة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2003، ج2.
7. الحسين بن محنض: تاريخ موريتانيا الحديث من دولة الإمام ناصر الدين إلى مقدم الاستعمار الفرنسي(1055–1322هـ/1645– 1905م)، مطبعة دار الفكر– نواكشوط، ط1، 2010
8. حماه الله ولد السالم: تاريخ بلاد شنكيطي (موريتانيا) من العصور القديمة إلى حرب شربيه الكبرى، بين أولاد الناصر ودولة بدوكل اللمتونية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2010.
9. الحموي، شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله: معجم البلدان، دار صادر، بيروت، 1977، ج1.
10. ابن خطيب، لسان بن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1، 1977.
11. ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر وتاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ضبط متنه ووضع حواشيه وفهارسه، خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، سنة 2000، ج6.
12. الخليل النحوي: بلاد شنقيط المنارة والرباط، عرض للحياة العلمية والإشعاع الثقافي والجهاد الديني من خلال الجامعات البدوية المتنقلة(المحاضر) المنظمة العربية للثقافة والعلوم، تونس، 1987
13. الداهية ولد محمد فال المختار: موريتانيا وقضية الصحراء من الحرب إلى الحياد، قراءة في الحصيلة والآفاق، مركز الجزيرة للدراسات، الدوحة، ط1، 2015.
14. روبير فيرني وآخرون: "الأركيولوجيا في موريتانيا"، ضمن كتاب "الأركيولوجيا في إفريقيا الغربية الصحراء والساحل"، ترجمة بوبه ولد محمد نافع، جامعة نواكشوط، 2002.
15. ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصورة للطباعة والوراقة، الرباط ، 1972.
16. صودت عبد الكريم يوسف: العلاقات الخارجية للدولة الرستمية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984.

Corresponding author:

17. عبد الودود ولد عبد الله(ددود): الحركة الفكرية في بلاد شنقيط حتى نهاية القرن الثاني عشر– (18م)، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، ط1، 2015.
18. ابن عذاري، أبو العباس أحمد بن محمد المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق، ج.س. كولان وليفي بروفينصال، دار الثقافة، بيروت، ط3، 1983، ج1/ و ج4 تحقيق ومراجعة إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ط3، 1983، ج4.
19. العمري، شهاب الدين أحمد بن يحي: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق مهدي النجم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2010، ج1
20. مجهول: الاستبصار في عجائب الأمصار لمؤلف مجهول، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1985
21. مجهول: الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، مؤلف أندلسي من القرن الثامن الهجري، تحقيق: سهيل زكار وعبد القادر زمانة، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، المملكة المغربية، ط1، 1979
22. محمد المحجوب ولد بيه: موريتانيا جذور وجسور، مكتبة القرنين 15/ 21 للنشر والتوزيع، نواكشوط، ط1، 2016
23. المختار بن حامد: حياة موريتانيا، جزء الحياة الثقافية، الدار العربية للكتاب، (د، س، ن)، ج2
24. الناني ولد الحسين: صحراء الملثمين وعلاقاتها بشمال وغرب إفريقيا من منتصف القرن (2هـ/8م) إلى نهاية القرن (5هـ/11م)، دار المدار الإسلامي، بيروت، ط1، 2007. نسخة إلكترونية.
25. اليعقوبي: البلدان، وضع حواشيه محمد أمين ضاوي، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت، 2002.

DENISE ao .devisée : tegdaoust.I, recherches sur Aoughost, paris, 1970–

– JEAN DE: VISSE : « Route de commerce et échanges en Afrique occidentale en relation avec la Méditerranée » Revue d'Histoire économique et sociale, N°1 et 3.

Corresponding author: